مدينة المغرب الأوسط " نشأتها وأهميتها "

نوال بلمداني ،
جامعة معسكر.

عرف الإنسان حركية مستمرة قبل استقراره وسط تجمعات بشرية، وتعاونه مع بني جنسه من أجل توفير متطلباته اليومية، ومع مرور الزمن أصبح يتطلع إلى حياة أرقى مما هو عليها، وبدأ الترف يظهر على نمط معيشته سواء في مسكنه أو مأكله أو أثاثه، فكانت المدينة أهم إنجاز حضاري قام به، لتصبح مع الوقت مكانا اجتماعيا ومسرحا للإنتاج والعمل والسلطة (هاشم، ع: ج1، 1995م. 323- مزيان، ع: د/ت. 28)، فهي أساس حضارة المجتمعات في الماضي والحاضر (إسماعيل العربي، 1987. 7- الموسوي، م: 1982م. 15- 16)؛ وقد عرّف ابن خلدون هذا المعلم التاريخي على أنه قرار يتخذ عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار (ابن خلدون: 1992.347)، أما المقدسي فقد شبهها قائلا: "الأمصار كالملوك..والمدن كالجند" (المقدسي: 1906. 47).

شروط النشأة:

الموقع الجغرافي:

شكلت المدينة القطب الدائر لحركة الإنتاج والتوزيع والتبادل الثقافي والاقتصادي، وملتقى التيارات الفكرية والسياسية والإجتماعية، وهذه الخصائص تعود إلى حسن اختيار موقعها، وفقا لشروط معينة حددتها بعض المصادر بالماء والكلاء والمحتطب (ابن قتيبة، د: 1925م. م1. 231- ابن خلدون، ع. 1992م. 397)، لأن الإنسان استعمل المياه لحياته واستخدم النبات والحيوان لمأكله ومشربه وملبسه، أما صاحب روض القرطاس فجمعها قائلا:" وقالت الحكماء أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: "النهر الجاري، والمحرث الطيب والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها" (ابن أبي زرع، ع: 1972م.33).

وقد جمعت مدن المغرب الأوسط بين هذه الخصال وبدرجات متفاوتة حسب اختلاف العوامل والظروف المحيطة بكل واحدة، ولم تخرج أو تبتعد عن تخطيط بقية الأمصار الإسلامية التي تبنى حول المسجد ودار الإمارة، وقد أشار دهاشم خضير الجنابي في أحد مقالاته إلى الصفات العامة التي اشتركت فيها المدينة الإسلامية سواء بالمشرق أو المغرب (هاشم، خ: 1984م. م5. 12 وما بعدها).

وسنشير ضمن هذا الموضوع إلى بعض المدن فهي ولاشك نتف من كثير، والهدف هو تقديم صورة عامة عن أهم الشروط التي تم مراعاتها في تأسيس المدينة، التي خضع تطورها العمراني لظروف المنطقة الطبيعية وأهمية موقعها (جودت، ع: 1992م. 349)، وكذا الإشارة إلى مدى أهمية هذه الأخيرة في تاريخ هذه الرقعة الجغرافية اقتصاديا وعسكريا، خاصة خلال القرن 4ه/10م، أما النماذج التي ذكرت فلا تقلل من أهمية المراكز الأخرى فكل واحدة لعبت دورها الحضاري على حسب مكانتها وتمركزها، لأنّ المدن منذ العصر الروماني كانت أقساما منها البحرية، والفلاحية، والعسكرية (صفر، أ: د/ت. 341- 342).

الحصانة:

بعد اختيار الموقع اتخذ الأفراد البنيان مأوى لهم وقاموا بتحصينه حفظا لأرواحهم (ابن عبدون: 1955م.34) من الأعداء والرعاع، فقاموا ببناء الأسوار الحصينة (ابن القاضي، م: 1973م. 42) مع مراعاة الإتقان، وطول السور وعرضه، ومادة الصنع التي تعطيه القوة والصلابة، وهذا ما ميز سور مدينة أفكان الذي كان من تراب وفي غاية الإرتفاع والعرض(ابن حوقل: د/ت.88)، وكذا سور مدينة وهران تميز بالإتقان والحصانة (الإدريسي: 1994م. ج1. 252)، أما سور مدينة تلمسان فكان من آجر حصين (ابن حوقل: د/ت. 88).

كما حرص المؤسسون على أن تكون التحصينات طبيعية لا دخل للإنسان فيها، كأن تكون المدينة على هضبة متوعرة من الجبل، أو محاطة ببحر أو نهر، فلا يتم الوصول إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، ولذلك يصعب منالها على العدو (ابن خلدون، ع: 1992. 347- صفر، أ: د/ت. 13)، كأرشقول التي كانت على صخرة يحيط بها البحر من كل جانب ماعدا الجنوب حيث يوجد طريق ينزل من الصخرة إلى اليابسة (الحسن، و: 303،1983)، وتاهرت ذكرها ابن حيان قائلا:" كما بلغك من وعورتها وصعوبتها وشموخ أجبلها (ابن حيان: ج5، 1979م. 303).

ونفس القول ينطبق على أشير التي كانت" بين جبال شامخة محيطة بها" و" لا يوصل إليها إلاّ من موضع يحميه عشرة رجال" (البكري: 2003م، ج2. 241)، لأنّ موقع المدينة منعزل يصلح لأن يكون قاعدة لقبيلة صنهاجة، وحصنا منيعا يقيها الهجمات الخارجية كما يمنحها إمكانية مراقبة السهول المحيطة بها، وهذا بالرغم من أن تأسيسها لم يكن بدافع عسكري وإنما ضيق مكان تجمع أفراد القبيلة اضطرهم للبحث عن أخر أوسع.

الهواء النقي:

ومن الشروط الواجب مراعاتها أيضا "الهواء الجيد"، أي أن تكون المدينة بعيدة عن السباخ العفنة (ابن القاضى، م:1973م، 35)، لتجنب الأمراض والأوبئة كالطاعون (أبو حامد،غ: 1989م، 48)، والهواء إذا أصبح راكدا خبيثا أو مجاورا للمياه أو مناقع المروج الخبيثة سهل انتقال العفن إلى المدن المجاورة له (ابن خلدون، ع: 1992م، 347)، ومثال ذلك مدينة تنس التي ذكر الإصطخري أنها كانت وبية (الإصطخري: 1961م، 54)، وكثيرة البراغيث، والحمى لا تفارق أهلها في كثير من الأوقات (القزويني: د/ت، 173)، وسبب ذلك كله أن شربهم كان من واد يدور حول المدينة، وإليه تذهب فضلاتهم (المقدسي:1906، 173)، كما ذكر البكري أن العناصر الأندلسية التي كانت بالمدينة قد غادرتها، لأنهم "اعتلّوا واستوبئوا الموضع" (البكري: 2003م، ج2. 242).

حتى الأماكن كثيرة العمران وذات ديمغرافيا متزايدة تكون عرضة لانتشار الأوبئة والأمراض لعدم تحرك الهواء وتجدده، أما وجود الخلاء والقفر بين العمران فإنه يبعد الهواء الفاسد والعفن(ابن خلدون: ع، 1992م، 302)، وهذا شرط توفر في العديد من مدن المغرب الأوسط كتلمسان التي كانت "لذيذة الهواء" (ابن خلدون، ي: 1980م، 85)؛ بالإضافة إلى ما سبق فإن الحر أو البرد المفرطان لا يساعدان على تركيب الكائن الحي (ابن رسته: 1891م. 108)، ولعل هذا ما يفسر انتشار الحضارات الكبرى بالمناطق ذات الاعتدال المناخي.

وفرة المياه:

ومن دواعي الاستقرار "وفرة الماء"، إذ يجب أن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة ثرة (ابن خلدون، ع: 1992، 357- الهيثي، ص: 1984م. م5. 35)، ليسهل على الأفراد الغسل والشرب والري ، كمدينة المسيلة التي بنيت على نهر من أجل الأنهار، فجرت مياهها وكثرة فحوصها واتسعت للزرع (عماد الدين، إ: 1985م، 396)، وكان لمدينة جزائر بني مزغنة "عيون على البحر طيبة وشربهم منها" (ابن حوقل: د/ت. 78)، وتوفرت تاهرت على أنهار وعيون لشرب أهلها، بعضها يأتي من الصحراء، وبعضها ياتي من جبل قبلي (اليعقوبي: 1988م. 114)، وهذا ما ساعد الناس على إحياء الموات وغرسوا البساتين وأجروا الأنهر واتخذوا الرحاء والمستغلات (ابن الصغير: 1986م. 12)، وهذه الأخيرة رغم قساوة مناخها إلا أنها كانت قادرة على تحقيق نمو زراعي، أما متيجة فكان على نهرها الكبير أرحاء وبساتين ولها مزارع (البكري: 2003م، ج2، 732)، ومدينة وهران "ماؤها من خارجها جار عليها في واد عليه بساتين وأجنة كثيرة فيها من جميع الفواكه" (ابن حوقل: د/ت، 79)، فالماء وتوفر مصادره من أهم العوامل التي جذبت البشر للاستقرار والاستيطان وأساس قيام الحضارات، ومبعث للنشاط الزراعي والاشتغال به.

المحرث الطيب:

إلى جانب ذلك يجب مراعاة توفر المحرث الطيب والمحطب القريب، لأن إحاطة السواد بالمدينة يعين أهلها بمواده، فالفلاحة كما عرّفها ابن عبدون هي "العمران، ومنه العيش كله، والصلاح جله، وفي الحنطة تذهب النفوس والأموال، وبها تملك المدائن والرجال، وببطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام" (ابن عبدون: 1955م. 5)، أما المحطب القريب فيوفر الوقود للنار والطبخ كما ان الخشب ضروري للبناء (السقوف).

ولم ينس سكان المغرب الأوسط ما رافقهم من حيوان، لأنّ كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، وهذا يعني توفير المرعى القريب لإبعاد المشقة، وقد أشارت العديد من النصوص إلى أنّ تربية الماشية كانت تقوم جنبا إلى جنب مع الزراعة، فمزارع المسيلة امتدت لتلبي حاجات أهلها وأكثر، وقابله امتلاك سوائم الخيل والأغنام والأبقار (الحميري: 1984م. 558)، ومدينة جراوة كان "حواليها بسائط عريضة للزرع والضرع" (الحميري:1984م. 162)، ومراعي وجدة كانت "أنجع المراعي وأصلحها للماشية" (البكري: 2003م، ج2. 752- مجهول:1985م.177).

وما يمكننا أن ننبه إليه هنا هو تلك العلاقة الموجودة بين الريف والمدينة، فحياة القرية كلها تدور حول الزراعة وتربية المواشي، وإذا كان فيها صنائع خفيفة فهي في معظمها تتعلق بأدوات الزراعة وبالسكن واللباس (مزيان، ع: د/ت. 268) وأصحابها لا يملكون النقود من الدنانير والدراهم، فهم يتبادلون منتجاتهم، أي الحياة الاقتصادية والمعاملات التجارية كانت تعتمد على المقايضة بالمواشي والإبل مقابل ما يحتاجه السكان، وهذا حال أشير وضواحيها إذ لم يكن الناس "يتعاملون بالذهب والفضة، وإنما بالبعير والبقر والشاه" (النويري: 1985م. 305)، بينما حياة المدينة مبنية أساسا على الصناعة المتنوعة وعلى التبادل التجاري المتنوع من تبادل محلي وتبادل مع النواحي البعيدة (مزيان، ع: د/ت. 268).

وعليه اشتهرت مدن المغرب الأوسط بكثرة حرافييها الحذاق، الذين ساهموا مساهمة كبيرة في تثمين المواد الخام التي كان إنتاجها في الريف وفيرا (خلف. م: 2007م. 209)، فتلمسان كان "يعمل فيها من الصوف كل شيء بديع من المحررات والأبدان وأحاريم

الصوف والسفاسير والحنابل المكللة وغير ذلك" (الزهري: د/ت. 113- ابن خلدون، ي: 1980م. 92)، أما أكسية وجدة "فليس لها نظير في الجودة إذ يساوي الكساء الجيد منها 50 دينار وأزيد" (مجهول: 1985م. 177)، وصنعت بجبل الونشريس البسط الملوكية (ابن سعيد: 1982م. 141).

بناءا لما سبق ذكره لا يمكن الفصل بين الريف والمدينة، هذه الأخيرة في حاجة ماسة لمواد أولية من أجل الصناعة والتجارة، أمّا سكان الأرياف فهم بحاجة الى العملة التي تساعدهم على شراء اللازم من متطلبات الحياة المتوفرة بالمدينة أمام انعدام الصناعات والحرف لديهم، فالقرى تتعش اقتصاد المدن بمنتجاتها الزراعية، مقابل ما توفره لهم من عملة وضمان أمنهم وسلامتهم، وهذا ما جعل صاحب أشير يفكر في طريقة أكثر تطورا، فأذن له الخليفة الفاطمي بصك عملة نقدية من ذهب وفضة فضرب " زيري السكة... فكثرت الدنانير والدراهم في أيدي الناس، واطمأنت نفوس أهل البادية للحرث والزراعة، وصانهم زيري مما كان ينالهم من زناتة" (النويري: 1985م. 308).

أهمية المدينة:

اقتصاديا:

إن توفر الشروط الأساسية للنشأة ، وحسن اختيار الموقع الذي لعب دورا في نمو المركز التجاري وتحويله إلى مدينة بأبعادها الحضارية ، إضافة إلى ثرواتها الزراعية والحيوانية وخصوبة تربتها، كل هذا جعل مدن المغرب الأوسط تحتل مركزا إستراتيجيا في المبادلات التجارية بين الصحراء وما وراء البحر، وكذلك الربط بين الشرق والغرب، فهذه الأهمية فتحت عليها جبهات الصراع بين الحكام الفاطميين والحكام الأمويين الذين سعوا من وراء حملاتهم العسكرية إلى تدعيم نفوذهم السياسي، والسيطرة على مراكز حساسة تقع على مسالك تجارة الذهب والرقيق إضافة إلى السيطرة على مدن المرافئ المرتبطة بالتجارة الصحراوية (الجنحاني، ح، 1977م. 19)، ومن أبرز هذه المدن "تاهرت" قاعدة الحركة التجارية بالمغرب الأوسط (العروي، ع: 1994م، ج1. 29)، ومعبر القوافل المتجهة جنوبا نحو السودان محملة ببضائع من مختلف مناطق المغرب والمشرق الإسلامي، وغالبا ما ضمت هذه السلع ثياب الصوف والأكسية من برقة، ومن افريقية الزيت والفستق والزعفران واللوز والبرقوق، والمزاود والأنطاع والقرب، ومن فاس التمور(المقدسي د/ت. 239).

أما تنس فكان "يحمل منها الطعام إلى الأندلس وإلى بلاد إفريقية وإلى بلاد المغرب لكثرة الزرع عندهم" (مجهول: 1985م. 133)، كما كانت أكبر المدن التي "يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم، ويقصدونها بمتاجرهم، وينهضون منها إلى ما سواها" (ابن حوقل: د/ت. 78)، وبذلك كانت سوقا للتجار الأندلسيين، ومرفأ لرسو سفنهم (البكري: 2003م، ج2. 726)، وعن المسلك المؤدي إلى المدينة أفادنا اليعقوبي قائلا: "..من أراد جزيرة الأندلس نفذ من القيروان إلى تونس، فركب البحر..يسير فيه مسيرة عشرة أيام مسحلا غير موغل حتى يحاذي جزيرة الأندلس من موضع يقال له تنس" (اليعقوبي: 1988. 110).

كما كانت جزائر بني مزغنة من المحطات التجارية الساحلية المتمركزة على الطريق البحري الشمالي، و كانت ترسو فيها السفن لشحن مختلف البضائع، وذكر البكري مرساها قائلا: "ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليه أصحاب السفن من إفريقية والأندلس وغيرها" (البكري: 2003م، ج2. **732**)، فأصبحت بذلك نقطة اتصال

بين المسالك البحرية في أعالي البحار وبين المسالك البحرية الساحلية (روجي، إ: 1992م، ج1. 294).

أما مدينة وهران فكانت "فرضة الأندلس، إليها ترد السلع، ومنها يحملون الغلال" (ابن حوقل: د/ت. 78)، وكثرة الغلات والفواكه والعسل والسمن بها أدى إلى تنشيط تجارتها، وأصبحت المراكب البحرية الأندلسية تسير إليها (الإدريسي: 1994م، م1. 252)، وأشار صاحب الاستبصار أن بناء المدينة كان من طرف جماعة من البحارة الأندلسيين، وذلك لأهمية مرساها (مجهول:1985م. 133) الكبير "وبه ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية" (الإدريسي: 1994م، 252).

ونفس المكانة احتلتها مدينة تلمسان، التي كانت مقصدا لتجار الآفاق (البكري:2003م، ج2. 259)، و" قفل بلاد المغرب وهي على رصيف للداخل والخارج منها ولابد منها والاجتياز بها" (الإدريسي: 1994م، 252)، فهي تحتل موقعا استراتيجيا خوّل لها مراقبة محاور الطرق التجارية بين الشرق والمغرب، وبين التل والصحراء، أما فرضتها أرشقول "يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم"(ابن حوقل: د/ت. 78)، وهذا لكثرة خيراتها وتنوع مزارعها، ولم تقل وجدة أهمية عن باقي المدن إذ كانت على "طريق المارة والصادرة من بلاد الشرق إلى سجلماسة وغيرها من بلاد المغرب" (البكري:2003 م، ج2. 256)، وترنانا كانت "محط السفن ومقصد التجار لقوافل سجلماسة وغيرها" (البكري:2003م، ج2. 264).

إنّ اشتراك مدن المغرب الأوسط في الخصب وتنوع الإنتاج شجعها على تصدير الفائض منه إلى مناطق أبعد، وفي نفس الوقت تسهيل التبادل بين المشرق والمغرب مرورا بأهم المراكز الداخلية، إلى جانب المحطات الساحلية التي لعبت هي الأخرى دورا بارزا في هذا المجال، كما ساهم النشاط التجاري في تنشيط الحركة العمرانية لتوافد عناصر جدد على المجتمع وما حملته معها من تقنيات وعوائد متأصلة، كالعناصر الكوفية والبصرية والأندلسية وغيرها ممن سكن مدينة تاهرت، فأنشأت بها المساجد وخصصت حارات، والمدينة إذا كثر عمرانها وسكانها "كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ، وكثر الصناع إلى أن تبلغ غاياتها... فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك...(ابن خلدون: 1992م. 398).

عسكريا:

لم تنشط مدن المنطقة في المجال الإقتصادي فحسب، بل حتى في المجال العسكري (الهيثي، ص: 1984م. م5. 54- 55)، فتاهرت التي اختارها عبد الرحمان لكي يستطيع أن يتحكم في القبائل الصحراوية البدوية، بحيث لا يمكنها الهروب منه شكلت خطا دفاعيا وهجوميا ضد الأمويين حتى لا يتوغلوا ببلاد المغرب، وسدّا أمام ما قد تتعرض له الخلافة الفاطمية من هجمات زناتية، ففي سنة 304ه/935م خرج مصالة بن حبوس من تاهرت لمحاربة صالح بن سعيد بن إدريس صاحب نكور، ونجح في قتله وافتتاح مدينته سنة 305ه/ 936م، ثم انصرف إلى مدينته (ابن عذاري: 1980م، ج1. 175)، وخرج منها سنة 312ه/943م إلى زناتة فجاب بلدهم وقتل وسبى (ابن عذاري: 1980م، ج1. 189).

كما سعى الأمويون إلى الحفاظ على نفس المدن بمختلف الطرق سلمية كانت أو باستعمال القوة، ففي سنة 325ه/956م تمكن موسى ابن أبي العافية من تحقيق انتصارات

كبيرة على الفاطميين والأدارسة، وإخضاع مدن من المغرب الأوسط بفضل مساعدة الأمويين له، وكتب بذلك إلى الناصر لدين اللّه قائلا: " ثم أخرجنا شوانئ من الأسطول الميموني فقدمناها إلى جزيرة أرشقول التي كان الداعي ابن أبي العيش قد اتخذها مستقرا، وكان استبعد عنها لما كان يتوقعه منا، سيّرنا في الشوانئ رجالا من قبلنا، فدخلها رجالنا، وافتتحوها واستولوا على جميع ما كان المنافقون استعدوا به فيها..." (ابن حيان: 1979م، ج5. 415).

لم يكتف ابن أبي العافية بأرشقول، بل قصد جراوة كذلك، وأشار ابن حيان إلى ذلك قائلا: "ثم قصدنا مدينة جراوة بجميع ما كان معنا بعد تدويخنا الساحل ونكايتنا بأهله، فخرج إليهم ابن أبي العيش بعدته وعديده للدفاع عن الموضع، فدارت بينهما حروب أدّت إلى هروب رجاله وسفك دماء حماته، وأخذت خيله، وانحصر ابن أبي العيش في القلعة التي ابتناها، فأحاط به ابن أبي العافية، وتغلب على مدينة جراوة، وغنم جميع ما كان فيها" (ابن حيان: 1979م. 415)، فالأمويون اعتمدوا في توسعاتهم على إيجاد موانئ لرسو سفنهم، وبهذا لم يترددوا في النزول بمدن المرافئ الموجودة بالمغرب الأوسط، فمنهم من كان ينتجع مرسى وهران (البكري: 2003م، ج2. 270)، ومنهم من كان يشتي في مرسى على ساحل البحر بمدينة تنس (البكري: 2003م، ج2. 276).

أما مرسى جزائر بني مزغنة فقد كان مقصدا "لأصحاب السفن من إفريقية والأندلس وغيرها" (البكري: 2003م. 280)، وبعث أهلها بدورهم وفدا إلى الناصر سنة328ه/969م يخطبون ولايته، ويسألون الدخول في طاعته، (ابن حيان: 1979م. 460).

لم تقل مدينة المسيلة أهمية عن سابقاتها، فبالإضافة لثرواتها الاقتصادية كانت منطلق الجيوش الفاطمية من أجل إخماد حركات الثائرين، وكذلك توفير العناء في تجهيز الجيوش من المهدية، وعند تأسيسها بأمر من الخليفة الفاطمي" أمر ان تدخر فيها الأقوات وأنواع المأكولات، وكل ما تنضم إليه الضرورة " (ابن حماد: 1984م. 24) وكان يمنع علي بن حمدون من بيع أو الاستفادة من هذه المدخرات، ويأمره بالاستكثار والادخار لأنه سيحتاج إليها، فكانت مددا للمنصور في حصاره لأبي يزيد و"عونا له ولأنجاده وإمداده عند وصوله إلى جبل كيانة" (ابن حماد: 1984م. 25- جودت، ع: 1992م. 365- 366)، فحول أرياضها دارت معارك حاسمة، وهذا يعني أن المدينة أدت مهمتها كاملة، وأشار صاحب العبر إلى دور المدينة في تقديم المدد للمعز الفاطمي قائلا:" ثم بلغه أن يعلى بن محمد اليفرني داخل الأموية من وراء البحر..فأنزل جوهر الصقلي الكاتب إلى المغرب بالعساكر وكان على وزارته، وخرج معه جعفر بن علي صاحب المسيلة وزيري بن مناد صاحب أشير" (ابن خلدون: د/ت، ج4. 46).

نفس الأهمية احتلتها مدينة أشير التي كانت تقع بين عديد من المدن الهامة كالجزائر والمدية والبليدة وملیانة (عويس، ع: 1991م. 88)، وبناها زيري بعد أن أذن له الخليفة القائم بذلك وأعانه فيها، وهذا اثر مؤازرته في الغارات ضد الرستمين وقبائل زناتة، وهي أيضا مكافأة له على ولائه للفاطميين، فشكلت حاجزا بينهم وبين البربر، ولعبت دورا عسكريا لما اشتد حصار أبي يزيد على المهدية، فأرسل زيري بألف حمل من الحنطة، وأخرج معه مائتي فارس من صنهاجة، وخمسمائة من عبيده إلى القائم (ابن خلدون: د/ت، ج4. 39- جودت، ع: 1992م. 370)، كما كانت عونا لإسماعيل حين نازل أبا يزيد إلى

قلعة كيانة، فجاءه زيري في قومه ومن انظم إليه من حشود البربر(ابن خلدون: د/ت، ج6. 154)، وحتى مع الدولة الحمادية لعبت المدينة دورا عسكريا خطيرا، "إذ كانت الظهير الذي يحمي جيش حماد ويلجأ إليه في حروبه ضد الزيريين وحلفائهم" (عويس، ع: 1991م. 88).

لم يتوقف دور هذه المدن عسكريا حتى مع مغادرة الفاطميين لبلاد المغرب، إذ استمرت الاضطرابات بين ولاتهم من بني زيري وأعدائهم من بني أمية، فالمصادر تناولت هذه الخلافات وما ترتب عنها، منها ما أشار إليه إبن أبي زرع عند دخول زيري بن عطية إلى مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب قائلا: "فملك ذلك مع تلمسان وشلف والمسيلة، وأقام بها الدعوة المؤيدية، وحاصر مدينة أشير قاعدة بلاد صنهاجة، وبقي عليها يقاتلها..." (ابن أبي زرع : 1972م. 135) فكتب يطوفت بن يوسف بن زيري إلى أبي مناد ابن أخيه سنة 389 ه/999م يعرّفه بنزول زيري بن عطية الزناتي عليه بتاهرت، وسأله أن يمده بالعساكر(النويري: 1985م. 325).

لم يتردد أبو مناد في إرسال المدد فبعث محمد بن أبي العرب الكاتب بالعساكر، ونهض حتى بلغ أشير وبها حماد بن يوسف بن زيري عامل عليها ومعه عسكر عظيم، ثم رحلا معا بالعساكر حتى وصلا تاهرت، واجتمعا بيطوفت ومعه أيضا عسكر عظيم، وزحفت القوى إلى زيري بن عطية فدارت بينهم حروب شديدة (ابن عذاري: 1980م، ج1. 249).

وهذا يعني تكبد مدن المغرب الأوسط خسائر كبيرة ومنها ما أصبح خرابا، وأرهق السكان بكثرة الحروب والفتن، مما اضطر بعضهم للبحث عن الأمن والحماية بطرق مختلفة، ولم يؤخذ جانب العمران الحضري في غمرة النزاع والأحقاد بعين الإعتبار، ولا مظاهر الاستقرار والرخاء، وآيات التمدن، التي أصيبت بضربة قاسية، كمدينة تاهرت وضواحيها التي وصفها صاحب صورة الأرض (4ه/ 10م) قائلا: " وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بسبب تواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت...." (ابن حوقل: د/ت. 93)، ونفس الأحداث عرفتها المنطقة خلال القرن الخامس الهجري نتيجة حركات البدو، وهجرات بني هلال وأحلافهم من مصر (عويس، ع: 1991م. 49 وما بعدها) فزال الأمن والهدوء ، وحدث تغيير جوهري في نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

كما شكلت الصراعات القائمة بين مختلف القبائل خطرا على السلطة، هذه الأخيرة فشلت كثيرا من الأحيان في فرض سيطرتها عليها بسبب اختلاف الآراء والأهواء، ومعارضة السلطة والخروج عنها وعدم الانقياد لها، فأصبحت الدولة التي تمثل "...السوق الأعظم للعالم، ومنه مادة العمران..." (ابن خلدون، ع: 1992م، 228) عاجزة عن التحكم في القبائل، الأمر الذي دفعها إلى الإيقاع فيما بينها لتجنب خطرها، وهذا ما فعله الإمام أفلح ليحمي نفسه من القبائل التي انتشرت حول مدينة تاهرت إذ "أرش ما بين كل قبيلة ومجاورها" (ابن الصغير: 1986م. 63) دون أن يأخذ سلبيات هذا التصرف بعين الاعتبار، فالأمن والاستقرار من الشروط الواجب توفرها، ولعل هذا ما يفسر عدم إنشاء أية مدينة جديدة بالمغرب الأوسط منذ الفتح الإسلامي حتى بناء مدينة تاهرت.

الخاتمة:

إذن المدينة بالمغرب الأوسط هي ثمرة لتطور تاريخي بعيد المدى، نتجت عن غرس مدني نشأ تلقائيا أو بمطلب ذاتي، أدت إلى قيام مراكز عمرانية في مساحات واسعة، وهذا مع مراعاة الشروط اللازمة لذلك؛ كما أن تأسيسها يعود الى إسهام جماعات بشرية، من أجل تحقيق أغراض مختلفة منها عسكرية وإدارية وسياسية ودينية، أما من حيث البنية فقد أصابتها تحولات في فترات تاريخية فرضتها عوامل جغرافية واجتماعية واقتصادية، لذا نجد بالمغرب الأوسط أسواقا تحولت إلى مدن تجارية هامة كسوق حمزة، سوق إبراهيم، سوق كران... وأخرى برزت اقتصاديا وثقافيا كتلمسان، تاهرت ...، ومنها من خدم الى جانب ذلك أغراضا عسكرية كالمسيلة، أشير، القلعة...، فمدن المغرب الأوسط لم تختلف عن نظيراتها في العالم الإسلامي آنذاك نشأة وأهمية.

القائمة المصادر والمراجع:

- الإدريسي أبو عبد الله الشريف: 1994م، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
- إسماعيل العربي: 1987م، المدن المغربية، د/ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب .
- الإصطخري: 1961م، المسالك والممالك، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني، القاهرة، مطابع دار القلم.
- ابن خلدون عبد الرحمان: 1992م، المقدمة، ط1، بيروت، دار القلم.

.....: د/ت، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم، د/ط، بيروت، دار العلم للجميع.

- ابن خلدون (أبو زكريا يحي بن أبي بكر): 1980م، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، د/ط، الجزائر، المكتبة الوطنية.
- البكري أبو عبيد الله: 2003م، المسالك والممالك، تحقيق د- جمال طلبة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الجنابي هاشم خضير: 1984م، المدينة الإسلامية وخصائصها، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، المجلد5، المملكة العربية السعودية، ص ص 5- 45.
- الجنحاني حبيب: 1977م، الصراع الفاطمي الأموي في المغرب خلال القرن 4هـ، أعمال الملتقى الثالث التونسي الإسباني، كلية الاداب والعلوم بتونس، قرطاج، 11- 17 أفريل.
- جودت عبد الكريم يوسف: 1992م، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- الحسن بن محمد الوزان: 1983م، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- الحميري: 1984م، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د.إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان.
- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي: د/ت، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- ابن حيان: 1979م، المقتبس، ج5، نشر ب. شالميتا مع مجموعة من المؤلفين، مدريد، المعهد الإسباني للثقافة
- خلف محمد نجيب وآخرون: 2007م، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، الجزائر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر.
- ابن رسته: 1891م، الأعلاق النفيسة، ليدن، مطبع بريل.
- ابن أبي زرع: 1972م، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة.
- ابن الصغير: 1986م، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر إبراهيم بحاز، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- صفر أحمد: د/ت، مدينة المغرب العربي في التاريخ، ج1، تونس، دار النشر بوسلامة.
- ابن عبدون: 1955م، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال القاهرة، مطبعة المعهد العلمي للآثار الشرقية.
- عماد الدين إدريس: 1985م، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب- القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار- تحقيق محمد اليعلاوي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- ابن عذاري المراكشي: 1980م، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان و.إ. ليفي بروفنسال، ط2، بيروت، دار الثقافة.
- العروي عبد الله: 1994م، مجمل تاريخ المغرب، ط1، ج1، بيروت، المركز الثقافي العربي.
- عويس، ع: 1991م، دولة بني حماد، ط2، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع.
- الغرناطي أبو حامد: 1989م، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- ابن القاضي المكناسي: 1973م، جذوة الاقتباس في ذكرمن حل من الأعلام بمدينة فاس، الرباط، دار المنصور.
- القاسمي هاشم العلوي: 1995م، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4ه/10م، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية.
- ابن قتيبة الدينوري: 1925م، عيون الأخبار، بيروت، دار الكتاب العربي.

- القزويني: د/ت، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر.
- مجهول: 1985م، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية.
- المقدسي:1906م، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، د/ط، بيروت، مكتبة الخياط .
- مزيان عبد المجيد: د/ت، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، د/ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار.

الموسوي مصطفى عباس: 1982م، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر.

النويري أحمد بن عبد الوهاب: 1984م، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية.

- الهادي روجي ادريس: 1992م، الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- الهيثي صبري فارس: 1984م، المدينة الإسلامية وخصائصها، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، المجلد5، المملكة العربية السعودية، ص ص 52- 71.
- اليعقوبي: 1988م، البلدان، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.